

النص الأدبي من نظرية الأدب المقارن نحو نظرية التناص

أ/محمد فيصل معامير

قسم الأدب العربي

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

ملخص:

النص الشعري تراكم معرفي يتراوح بين النظام و الفوضى، و بين الوعي و اللاوعي، وهو مضمّن معرفي معقد. والتيار المعرفي أخذ و عطاء، اتصال و استمرار لا يعرف الانقطاع و الانفصام، و هو لبنة من هذا الطود الشامخ الذي يدعى (الاداب العالمية) التي تقوم على علاقة التناغم و بناء الجسور الحوارية فيما بينها عن طريق التأثير و التآثير ببعضها و في بعضها. و الاصل في هذا يرجع الى وحدة الجوهر الإنساني و خلود العواطف البشرية و تشابهها رغم التباين و الاختلاف بين الناس .

Résumé

Le Texte poétique est l'accumulation de connaissances entre le système et le chaos, et de la conscience et l'inconscient, un domaine complexe de connaissance. Le courant de la connaissance est un appel d'offre ,de contact et de suivi sans ambiguïtés .C'est un édifice glorieux nommé (Littérature universelle), qui est basé sur la relation d'harmonie et de dialogue pour construire des ponts entre elles à travers l'impact et l'influence entre les uns et les autres .Et l'origine de cette unité en raison provient de l'essence et de l'immortalité des émotions humaines et ses similitudes malgré les différences, en dépit de la disparité entre les personnes.

تأسيس:

إننا- إذا انطلقنا- مع (رولان بارت) في رده لنظرية المحاكاة في الأدب ورفضه إياها بحجة أن المحاكاة تفسر الأدب على أنه انعكاس يشبه المرأة لحقيقة قائمة سلفا، وتلك ليست صفة الأدب، لأن الكاتب- إنما يكتب لغة استمدها من مخزون معجمي له وجود في أعماقه.(1)

إننا- إن فعلنا ذلك لم يبق أمامنا سوى التعلق بأهداب نظرية التناص التي جاءت بوصفها بديلا لنظرية المحاكاة في الدراسات النصوية المعاصرة.

هذا بالإضافة إلى أن العالم اليوم يمور بأموج عاتية من التقارب والتداخل المؤديين إلى التفاعل والمثاقفة يجعلنا نشدد على بعض المفارقات بما أننا نجد أن مفهوم "Acculturation" (2) يصلح أكثر من غيره للإجابة عن وضعيات في التفاعل الثقافي وخلافه بين الجماعات والنصوص. تحتاج هذه الوضعيات وتتطلب سبيلا في درسها يتعدى الإطار "المقارن"، فهناك وضعيات يعايشها العالم كما عاشها ويعيشها عالم العربية. وقبل ثقافتنا ورواياتنا وأشعارنا نتسم بالتفاعل البين مع ثقافات وسلوكات أجنبية. يصح هذا في علاقتنا بغيرنا كما بعلاقات غيرنا بثقافتنا؛ أي ما يحتاج إلى سبيل علمي في المقاربة يضع حداً لـ: "المقارنة" التي تقترض وجود نص "أول" على أنه المؤثر على غيره، وهو -غالبا- النص الغربي، ووجود نص "ثان" على أنه الخاضع للتأثير، وهو النص غير الغربي غالبا؛ يضاف إلى هذا أن شروط التفاعل باتت صعبة الوصف نظرا لوفرتها ولحداقة الأدباء والمبدعين في إخفاء معالم التأثير، ما يدعونا إلى اعتماد مفهوم آخر قابل لتفكيك وضعيات التفاعل، وهو ما يوفره مفهوم "التناص".(3)

وإذا كانت نظرية "التناص" تربطها ونظرية الأدب المقارن" علاقة شبه موحدة هي علاقة التأثير والتأثر، فإنها تنفرد عنها بشموليتها؛ لأن نظرية التناص تضم الموروث الإنساني السابق والمزامن للنص المكتوب بما فيه الأدب المقارن نفسه بقطع نظر الإهتمام بالصلات التاريخية واختلاف اللغات. لا شك أن الأدب المقارن ونظرية التناص قد انبتقا

من تقاطع واحد هي علاقة التأثير والتأثر لما توحى به لفظة "تأثير" من علاقة مباشرة تدل على أن نصا معيناً لا يكتب ما لم يكن صاحبه قد اطلع قبل كتابته على نص غيره. (4)

غير أن التناص كما يذهب كل من (كورتيس Courtes) و(جريماس Grimas) يقوم على جملة من الإجراءات التي بإمكانها أن تصبح وسيلة للتعبير المنهجي لنظرية التأثير التي قامت على أساسها أبحاث الأدب المقارن (5)؛ ذلك لأن المقارنة بين النصوص والموازنة بينها لا تقف عند حدود الأدب المقارن، وإنما تتعداها إلى نظرية النصوصية، وبخاصة إذا وضعنا بالاعتبار أن الأدب المقارن لا يعطي أدنى اهتمام لتفاعل النصوص في الأدب القومي الواحد، فليس من الأدب المقارن في شيء ما يساق من موازنات داخل الأدب القومي الواحد سواء أكانت هناك صلات تاريخية بين النصوص المقارنة أو لا، فالموازنة بين (كورني Corneille) و(راسين Racine) يتخلى عنها مؤرخ الأدب المقارن (6)، وهذا شرط من شروط المقارنة في المدرسة الفرنسية التي تهتم بتقاطع نص معين مع نص آخر بلغة مخالفة وإثبات الصلات التاريخية، بينما التناص يدرس تداخل نص مع نصوص أخرى لا متناهية من الثقافات المختلفة أو في إطار الثقافة الواحدة.

وهذا ما جعل (جوليا كريستيفا) تؤكد الفصل بين الأدب المقارن ومفهوم التفاعل النصي، وحين سئلت عن أهمية التفاعلات النصية في الكشف عن النصوص كان ردها: إن التناص لا يمكن أن يودي إلى المقارنات بين هذه النصوص.. لأن النص يؤكد قيمته في كثافته ومبادلته النصوص داخل النص تجعل منه نصاً جامعاً (7). ما يجعل الأدب المقارن في المدرسة الأمريكية أقرب إلى تمثيل مفهوم التناص من المدرسة الفرنسية، لكونها تركز على الرؤية الداخلية للنص المقارن دون إثبات علاقة التأثير والتأثر واختلاف اللغة. ومن هنا تجاوزت نظرية التناص من التحليل الشكلي للنص وأثبتت توحيد الاجناس الأدبية.

وقد كان لها الفضل والمزية في كسر الحدود بين الاجناس الأدبية، ما جعل (جيرار جينيت) يعيد قراءة نظرية الاجناس منذ أيام (أرسطو) ليخلص إلى أن قدر الكتابة هو التوحد أو ما سماه النص الجامع (معمارية النص L'architexte). (8)

وإذا كان النص هو صفة يتجلى من خلالها نسج الكلام باللغة، فإن التناص هو تبادل التأثير بين الكتاب (ولا ينبغي أن يتداخل هنا موضوع الأدب المقارن الذي يبحث في أصول الأفكار على وجه الثبوت...) كتبادل التأثير بين (فلوبير وبروست كما يرى (رولان بارت)(9) وتبادل التأثير بين الحريري والهمداني؛ حيث من المستحيل أن يعيش نص ما ويحيا خارج نصوص سبقتة أو عاصرتة، وسواء أكان هذا النص هو الجاحظ أم طه حسين أم شوقي أم الشابي... فإن الثابت هو أن هذا النص نسيج من نصوص ما أو نصوص ما، فكأن النص الإبداعي الجديد هو -أبدا- قائم على أنقاض نصوص أخراة انقضت في ذاكرة التناص؛ فهي -كما يعبر بارت- تضمين بغير تنصيص.

ولقد أشار (عز الدين المناصرة) إلى الاهلية النظرية لمفهوم التناص الناشئ في الدراسات اللسانية عندما قال: "إن مقولة التناص أكثر موضوعية في تناول المقارنة بين الشعوب" (10). ولكن من دون طرح للمسائل المستجدة في حاضر الدراسات "المقارنة" ومن دون أن يجعل لهذه المفاهيم الداخلة على الأدب المقارن أي "المثاقفة" و"التناص" أية قابلية إجرائية. وترى باحثة عربية معاصرة أنه -وعلى أية حال- فإن سبيل التناص يتعدى هذا الإطار القديم للمشكلة؛ لأنه يتحقق أساسا من أحوال التفاعل فوق مساحة النصوص. إلى هذا، فإن إدراج مسألة "المثاقفة" تحت باب "النقد المقارن" لا يفي بالمراد أبدا وهو الانتباه إلى واقع التفاعل النصي الذي يقوم بين نصوص واقعة ضمن اللغة الواحدة لا بين لغتين مختلفتين كما هو عليه الحال في الادب المقارن في صيغته التقليدية كما نستطيع أن نزيد على هذين الاعتراضين اعتراضا ثالثا وهو أن هذا المنزع "المقارن" يقوم على موازاة أو تقابل أو مقارنة بين نصين، فيما يسعى الفهم "التناصي" إلى تبين حقيقة التفاعل النصي أو "التنصيص" في النص نفسه، على أنه يشير إلى نصوص أخراة واقعة ضمن نصوص ثقافته أو خارجها وفق علاقات من التفاعل قد

تكون استعادة أو محاكاة أو تحويرا ساخرة لهذه النصوص الأخرى التي يتم "تملكها"... (11)

وعن مستقبل الأدب المقارن فقد تسائل بعض الباحثين المعاصرين ومنهم (سوزان كاسنيت) عن ذلك ووجدوا أنه غدا من الضروري التساؤل حول إمكانية استمرار الأدب المقارن كما هو. وبخاصة أن الشواهد بدأت تترى مؤكدة أن ثمة تحولات نظرية وتفرعات منهجية وحقلية قد تعني انحلال الأدب المقارن في حقول جديدة.

من ذلك تنامي ما يعرف الآن بـ "الدراسات الترجمية" أو الدراسات المتصلة بالترجمة التي تثير أسئلة هامة حول دور الترجمة في الاتصالات عبر الثقافية على نحو يجعلها على قدر كبير من الاستقلال عن الدراسات المقارنة. ومن ذلك أيضا ما يعرف الآن بـ "الدراسات ما بعد الاستعمارية" أو ما بعد الكولونيالية" والمقصود بها الدراسات التي تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمرا وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار، مع ما تتضمنه تلك الدراسات من تحليل للنصوص الأدبية وغيرها للكشف عن استراتيجياتها الخطابية على النحو الذي يبرزه (إدوارد سعيد) في كتابه "الاستشراق" 1978. (12)

الهوامش:

- (1). عبد الله الغداني، الخطيئة والتكفير، مرجع سابق، ص 323.
- (2). عز الدين مناصرة، المثاقفة والنقد المقارن: منظور إشكالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1996، 2، ص12
- (3). مجدي وهبة، الأدب المقارن، الشركة المصرية العامة للنشر، ط1، 1991، ص 15.
- (4). شربل داغر، التناص سبيلا إلى دراسة النص الأدبي وغيره، مجلة فصول، مرجع سابق، ص 126.
- (5). محمد حطاي، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام النص)، دار توبقال، الدار البيضاء، ط3، 1992، ص315.
- (6). محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 13.
- (7). آمنة بلعلي، نظرية النص عند جوليا كريستيفا، مرجع سابق، ص77.
- (8). المرجع نفسه، ص77.
- (9). عبد الملك مرتاض، فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص، مجلة علامات في النقد الأدبي، النادي الأدبي، جدة، ج1، م1، ماي 1991، ص 83، نقلا عن R. Barthes. le plaisir de texte.
- (10). عز الدين املناصرة، المثاقفة والنقد الأدبي، مرجع سابق، ص12.
- (11). شربل داغر، التناص سبيلا إلى دراسة النص الشعري وغيره، مرجع سابق، ص 127/126.
- (12). ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي — المركز الثقافي العربي، ط3، 2002، ص 33/32.